الآداب | مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات والبحوث الإنسانية
(EISSN): 2707-5192 ISSN: 2616-5864

العدد السادس عشر 16
سبتمبر 2020

البعد الإنساني في المدينة العربية الإسلامية

أحمد محمد محمد عبدالمغني* أ.د. عبدالله عبدالسلام الحداد**

amughni22@gmail.com aalhaddad@ksu.edu.sa

الملخص:

مثّلت المدن التي بناها المسلمون صورة صادقة للحضارة الإسلامية ما زلنا نراها في العديد من المدن العربية والإسلامية، حيث اختار المسلمون المواقع المميزة وأضافوا إليها فنونهم المختلفة والمتعددة في شتى المجالات؛ فنتج عن ذلك مدينة إنسانية بُنيت بالإنسان من أجل الإنسان، إلا أن كثيرا من المدن الحديثة تفتقر إلى العديد من الأبعاد الإنسانية الضرورية لتحقيق الاحتياجات المادية والمعنوية لساكنيها؛ نتيجة تجاهل المبادئ التي بُنيت عليها المدينة العربية الإسلامية واستبدالها بالمبادئ والنظريات الحديثة. تهدف هذه الدراسة إلى تحليل ودراسة الأبعاد الإنسانية التي تتضمنها المدن العربية الإسلامية ليتم الاستفادة منها في معالجة وتعزيز البُعد الإنساني في المدن الحديثة القائمة، وأخذها بعين الاعتبار عند تصميم المدن الجديدة. وتوصلت الدراسة إلى عشرة أبعاد إنسانية ينبغي على المخططين والمصممين أخذها بعين الاعتبار عند تخطيط وتصميم المدن، وهذه الأبعاد هي (**الإدارة- الوصولية- الهيكل المتضامّ- التنوع- الراحة- المقياس الإنساني- الهوية - العضوية والبساطة- الخصوصية**).

الكلمات المفتاحية: البُعد الإنساني؛ الهيكل المتضام؛ التنوع؛ الراحة؛ الهوية.

* طالب دكتوراه – كلية العمارة والتخطيط – جامعة الملك سعود – المملكة العربية السعودية.

** أستاذ العمارة الإسلامية – قسم الآثار – كلية السياحة والآثار – جامعة الملك سعود – المملكة العربية السعودية.

العدد السادس عشر 16
سبتمبر 2020

مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات والبحوث الإنسانية
(EISSN): 2707-5192 ISSN: 2616-5864

The Human Dimension in the Arab Islamic City

Prof: Abdullah Abdulsalam Al-Haddad* Ahmed Mohammed Mohammed Abdulmughni**

aalhaddad@ksu.edu.sa amughni22@gmail.com

Abstract:

The cities built by Muslims represent a true picture of the Islamic civilization that we still see in many Arab and Islamic cities. Muslims chose distinctive sites and added to them their various and varied arts in various fields. All that done for the purpose of humanity. However, many modern cities lack many of the human dimensions necessary to fulfill the material and moral needs of their inhabitants because of ignoring the principles on which the Arab Islamic city was built and replacing them with modern principles and theories. This study aims to analyze and explore the human dimensions that Arab Islamic cities include, in order to get benefit from them to address and strengthen the human dimension in the existing modern cities, and to consider them when designing new cities. The study has explored ten human dimensions that planners and designers should take into account when planning and designing cities. These dimensions are (management - accessibility - cohesive structure - diversity - comfort - human scale - identity - membership and simplicity - privacy).

Key Words: Human Dimension, Compact Structure, Diversity, Comforts, Identity.

* Professor of Islamic Architecture - Archaeology Department - College of Tourism and Archaeology - King Saud University – Saudi Arabia.

** PhD Scholar - College of Architecture and Planning - King Saud University - Saudi Arabia

المقدمة:

برع العرب المسلمون في مختلف العلوم لقرون عديدة وخاصة الفترة الممتدة من بداية قيام الدولة الإسلامية الأولى حتى سقوط الخلافة العباسية، وكان لتخطيط المدينة العربية الإسلامية اهتمام خاص من قبلهم، حيث بدأت تأخذ نمطا مميزا في تخطيطها مع بدايات الدعوة إلى الإسلام، وقد شكل الفكر الإسلامي المرجع الأساسي لتخطيط هذه المدن التي تم تأسيسها تباعا مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية، فكثر عددها، وتوسعت، وازدهرت، بتوسع وازدهار الحضارة العربية[1].

اهتم علماء المسلمين بالمدينة وتخطيطها وتنظيمها أشد الاهتمام، فقد اشتملت كتب تاريخ الاجتماع السياسي عادة على أبواب خاصة بالعمران، وضحت الأسس والنظريات التي يجب على الحاكم المسلم اتباعها فيما يختص بسياسة العمران، وكانت هذه المصادر من وضع علماء ذوي دراية واسعة بحياة المجتمع والمتغيرات التي تواكبها، وهذه المؤلفات كان يكتبها أصحابها من فترة إلى أخرى؛ حرصا منهم على النهوض بالمجتمع، وتقويما لسياسة الحاكم برسم المنهج الصحيح الذي يجب اتباعه، ومن هذه المصادر[2]:

- كتاب ابن أبي الربيع (سلوك المالك في تدبير الممالك)، وكتبه للخليفة المعتصم العباسي.
- كتاب الأحكام السلطانية، للماوردي.
- كتاب السياسة، لابن حزم.
- كتاب الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لابن رضوان.
- مقدمة ابن خلدون.
- كتاب بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الأزرق.

وجميع هذه المصادر اعتبرت العمارة من أركان الملك، بل إن بعضها أشار تحديدًا إلى أنها الركن الخامس بعد: تنصيب الوزير، وإقامة الشريعة، وإعداد الجند، وحفظ المال.

مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة الدراسة في افتقار كثير من المدن الحديثة إلى العديد من الأبعاد الإنسانية الضرورية لتحقيق الاحتياجات المادية والمعنوية لساكنيها، والسبب في ذلك تجاهل المبادئ التي بُنيت عليها المدينة العربية الإسلامية واستبدالها بالمبادئ والنظريات الحديثة التي لا تراعي الاحتياجات الإنسانية عند تخطيط وتصميم المدن؛ لذا تسلط هذه الدراسة الضوء على الأبعاد الإنسانية التي تتضمنها المدينة العربية الإسلامية؛ ليتم الاستفادة منها في معالجة وتعزيز البُعد الإنساني في المدن الحديثة القائمة، وأخذها بعين الاعتبار عند تصميم المدن الجديدة.

هدف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تحليل ودراسة الأبعاد الإنسانية التي تتضمنها المدن العربية الإسلامية التي تُمكّن من تعزيز البُعد الإنساني في المدن المعاصرة.

المنهجية:

تتبنّى الدراسة المنهج الوصفي التحليلي؛ حيث سنتناول دراسة واستنباط الأبعاد الإنسانية التي تتضمنها المدن العربية الإسلامية، وذلك من الدراسات التي أنجزها الباحثون في هذا المجال.

البُعد الإنساني في المدن العربية الإسلامية:

مثّلت المدن التي بناها المسلمون صورة صادقة للحضارة الإسلامية، ما زلنا نراها في العديد من المدن العربية والإسلامية من بخارى وسمرقند في شرق العالم الإسلامي إلى فاس ومراكش في غرب العالم الإسلامي، حيث اختار المسلمون المواقع المميزة وأضافوا إليها فنونهم المختلفة والمتعددة في شتى المجالات، وقد تميزت هذه المدن باتجاهات تخطيطية وعمرانية كانت وليدة احتياجات وظروف سكانها، ولم يكن حينها علم التخطيط معروفا بمفاهيمه ونظرياته المعاصرة. وبدأ الكثير من المخططون اليوم يعودون لأنظمة تخطيط المدن الإسلامية، التي حققت تطابقا وتوافقا في الاحتياجات المادية والمعنوية التي أنتجت تشكيلا فراغيًا يعبر عن المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية[3].

وتزخر المدينة العربية الإسلامية بمجموعة كبيرة من الأبعاد الإنسانية، ما جعل منها مدينة إنسانية بُنيت بالإنسان من أجل الإنسان، ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي:

- **الإدارة**

كانت المدينة العربية الإسلامية تملك إدارة حضرية منظمة، فقد كان القاضي والمحتسب هما المعنيّان بتطبيق القواعد الشرعية في عملية بناء المدينة، كما كان المحتسب يعيّن له نوّابًا يمثلونه (لا مركزية في الإدارة) في أي موضع من السوق؛ للمراقبة وجلب المخالفين، فالمحتسب غير قادر على مراقبة وإدارة المدينة بكاملها بدون أعوان[4].

كما اعتمد مخطط المدينة الإسلامية على المشاركة الفعالة للسكان في المدينة، فقد راعى التركيبة الاجتماعية، حيث خُطّطت المدينة على أساس الانتماء القبائلي أو التبعية الدينية أو العقائدية، لا على أساس المستوى المادي والاقتصادي، مع ترك إمكانية التطور والنمو لكل منها؛ وهو ما عزّز البعد الإنساني فيها.

وقد اعتمد المسلمون هذا المبدأ في كل المدن التي بنوها واستوطنوها، ومن أشكال مشاركة السكان في التخطيط ما يأتي:

- حق الشفعة: أعطى الشارع حق الشفعة في العقارات للشريك أو الجار. والشفعة اصطلاحا هي "استحقاق الشريك انتزاع حصة شريكه المنتقلة عنه من يد من انتقلت إليه". أي أنه يحق لأحد الشركاء في العقار أن يشتري بالأولوية عقار الشريك الآخر، فالشفعة من أسباب الملكية، والحكمة منها في الشرع دفع الأذى المتوقع من دخول الغرباء إلى المنطقة السكنية بدون إذن السكان، والمحافظة على التركيبة الاجتماعية للسكان.
- قاعدة لا ضرر ولا ضرار: هذه القاعدة الشرعية تركت مساحة واسعة للسكان في تنظيم أمور حياتهم فيما بينهم، فيما يمنع الضرر والضرار عن الفرد والجماعة.

- حق الطريق: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قضى النبي صلى الله عليه وسلم إذا تشاجروا في الطريق الميناء بسبعة أذرع". وهذا يعني إذا كان هناك خلاف على أحد الطريق عند الشروع في البناء فيجب ترك سبعة أذرع للطريق ثم البناء على هذا[5].

كما أنه كان يراعى في اختيار موقع المدن الإسلامية مشاركة أصحاب العلم والدراية في قضايا الصحة والزراعة والري والتجارة؛ لاختيار الموقع المناسب للمدينة، كما يشترط أن تكون المدن في أماكن مرتفعة وعلى نهر جار عذب؛ لمد المدينة بالمياه اللازمة[6].

- **الوصولية**

إن أنظمة الحركة لا تتعارض مع الوحدة العضوية للنسيج الحضري في المدينة الإسلامية، إذ تشكل شبكة الطرق والمسالك المترابطة بالتواءاتها وانحرافاتها بانوراما بصرية تتحرك خلالها عين المشاهد عند تنقله في دروبها وأزقتها التي تتسع حينًا، وتضيق حينًا آخر، وبما يبعد الممل عن عين المشاهد الذي لا يشعر بالمسافة التي يقطعها. إن هذه الأنظمة تهدف إلى غايات بيئية تتمثل في الحفاظ على رطوبة الهواء لأطول فترة ممكنة في فصل الصيف، وغايات ثقافية ترفيهية تتمثل في تحقيق رغبة الساكنين في الاقتراب بعضهم من بعض، وبما يساعد على تبادل الأفكار، إضافة إلى ما يثيره السير في الأزقة الملتوية من تأمل، بعيدًا عن الضجر الذي يثيره السير في الشوارع المستقيمة[7].

يرتبط عرض الطرقات بالقيم والعادات والتقاليد الإسلامية وقوانين الحسبة السائدة في المجتمع المسلم[8]. ويمكن تقسيم الطرق إلى ثلاثة مستويات، هي[9]:

المستوى الأول: الطرق العامة وتسمى أيضا الطرق السابلة، وهذا الطريق مباح لكل الناس السير فيه وإيقاف الدواب أو فتح نافذة إليه، أو اتخاذه مكانا للبيع والشراء، بشرط ألا يضر بالمارة وبالطريق.

المستوى الثاني: هو الطريق العام الخاص، وهو أقل درجة من الطريق العام، إذ الانتفاع

به من قبل جماعة المسلمين يقل عن سابقه، ومن ثم تزداد سيطرة الفريق الساكن فيه عليه.

المستوى الثالث: الطريق الخاص، ومنه الطريق غير النافذ، وهو ملك لساكنيه فقط، وقد كان بعضهم يضع بوابة على هذا الطريق للإعلام بحدود أهل ذلك الطريق وابتغاء السكان للأمن.

إن هذه المنظومة المترابطة من المسالك في هيكل المدينة تربط مركزها بأحيائها ومحلاتها السكنية وتضمن تدرج الانتقال وسهولة الوصول من الطريق العام الذي يحقق تكامل أجزاء المدينة، إلى الأزقة الفرعية التي يتداخل فيها العام والخاص، ومنها إلى الأزقة الخاصة. وتعد الساحات الوسطية نقطة التقاء مجموع الشوارع أو السكك أو الأزقة، وهذا التدرج يؤدي إلى تشكل الإحساس بالانتماء إلى المكان، كما إنه يضمن التدرج في الرؤية من خلال الانتقال من فضاءات مكشوفة أما أشعة الشمس إلى فضاءات ظلّيّة، بحيث يبقى مستوى البصر متوازيًا.

إن الخصائص السابقة هي التي أعطت النمط العربي والإسلامي القديم تميزه وخصوصيته مقارنة بأنماط حضرية أخرى، حيث تكتمل فيه الجوانب العمرانية بالجوانب الاجتماعية ووفق عوامل حضارية وقيم اجتماعية.

- الهيكل المتضام

يعدّ التضام أحد المفاهيم المهمة التي أثرَت البيئة الحضرية للمدينة العربية الإسلامية التقليدية بجانبها العمراني وعزّزت الجانب الإنساني فيها، حيث تميّزت باستمرارية الحيز وامتداده ليظهر المدينة كفضاء متصل ومترابط يتميز باتصاله وصعوبة تقسيمه[10].

كما تميّز الطابع الحضري للمدن العربية الإسلامية باتزان وتكتّل المباني وتفريغها الوسطي المكون للفناء الداخلي الذي تفتح النوافذ عليه، وشوارعها الضيقة، ووحداتها الصغيرة؛ فتميزت الكتل بالتصاق مبانيها في صفوف متراصة لتحقيق عدم تعريض الواجهات للإشعاع الشمسي؛ نظرًا للعوامل الجوية القاسية؛ ولتوفير ظلال للمشاة، ولاستغلال الأرض بشكل أمثل[11].

- التنوع

تتميّز المدينة العربية الإسلامية بتنوع الاستعمالات، حيث تستند استعمالات الأرض للمدن العربية الإسلامية التقليدية على أساس التكامل بين المكونات الدنيوية ضمن المعتقدات الدينية والجوانب الروحية؛ حيث تميزت بخلط استعمالاتها بين الديني والحكومي والتجاري والفضاءات؛ فيسّرت الوصول إلى الوجهات المختلفة وأصبح الحصول على الاحتياجات أمرًا سهلًا لا يُحتاج فيه إلى السير لمسافات طويلة؛ وهو ما كان له أثر في تقوية البعد الإنساني داخل المدينة العربية الإسلامية[12]. كما كان يُفصل بين الاستعمالات الضارة وغير الضارة، فالاحتياجات ذات الاستعمالات المتكررة تكون في متناول أيدي الناس في الأسواق أو داخل الأحياء، أما الاستعمالات التي قد يحصل منها ضرر على السكان فكانت تُعزل وتوضع خارج المدينة، مثل صناعة مواد البناء[13].

ونجد التنوع ضمن الشكل العام للمدينة في الفضاءات والطرق والواجهات والكتل بطريقة تجذب السكان وتشجع على الاستخدام، فالفضاء يضيق مرة ويتسع أخرى، ويستقيم أحيانًا وينحني أحيانا أخرى، فهناك توقف واحتواء وانتقال من فضاء إلى آخر، وتكون الحركة في الأزقة حرة، كما انعكس هذا التنوع على تصميم الواجهات وتنوعها[14].

- الراحة

إن من أهم مظاهر التخطيط العمراني للمدينة الإسلامية الشوارعَ الضيقةَ والأفنية الداخلية المكشوفة، فهما يقومان بتوفير الظلال والحماية من أشعة الشمس؛ ما يسمح بانتقال الهواء من الشوارع الضيقة التي تمثل مناطق الضغط العالي إلى الأفنية الداخلية التي تمثل مناطق الضغط المنخفض، خاصة أثناء النهار عند تعرضها لأشعة الشمس. وكانت شوارع وممرات المدينة غير مستقيمة؛ بهدف تحويلها إلى أنفاق للرياح الشتوية الباردة أو رياح الخماسين الساخنة المحملة بالأتربة والرمال، كما أن ضيق الشوارع يمنع حدوث ذلك من خلال التعرجات والانحناءات وإتاحة مناطق مظللة أيضا[15].

وتزخر أزقة المدينة العربية الإسلامية بالمشاهد المتتالية ضمن الزقاق الواحد، إذ إن المرء يتعرض في تلك الأزقة إلى تنويع متدرج في كل خطوة يخطوها في مشهد يُقوّي الارتباط بين الإنسان والمكان ويجعل من الطريق أقصر عند السير فيه، وقد اقترن ذلك بجمالية الوحدات السكنية بتكويناتها المعمارية من خلال المشربيات والبروزات والأقواس، ومواد البناء المحلية (الطابوق والآجُرّ)، وطرز بنائها وزخرفتها ونقوشها[16].

إن من الخصائص المميزة للنمط العربي الإسلامي الاستجابةَ للظروف المناخية (اتجاهات الرياح، درجات الحرارة،.... إلخ)، والتكيف معها في تخطيط وتصميم الهيكل العمراني وفضاءاته المختلفة. وهذا التعامل الواعي مع الظروف البيئية بدأ من اختيار موقع المدينة، مع جعل المناخ واعتداله أحد المقومات الضرورية عند هذا الاختيار؛ تعبيرا عن التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية الذي ينتج عنه بيئة صحية وسليمة لساكني المدينة، وما اختيار موقع مدينة بغداد من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في عام 145هـ/762م، إلا مثال على ذلك[17].

ويبدو هذا التكيف واضحا من خلال وجود الفناء الداخلي في الوحدة السكينة لتوفير التهوية، بالإضافة إلى الحماية من أشعة الشمس، فهذا الفناء يقوم على مبدأ الانفتاح إلى الداخل، حيث يتم توجيه أجزاء البيت بأبوابه ونوافذه نحو الفناء، ويوفر الظل المناسب ويقلل من تأثيرات الرياح والأتربة، إذ يعطي للخارج جدرانا مرتفعة بسيطة قليلة الفتحات أو خالية منها، تخترقها فتحة واحدة منخفضة، هي مدخل الدار.

كما تم مراعاة الجوانب المناخية عند تخطيط الشوارع وأهمها[18]:

1- توجيه الشوارع من الشمال إلى الجنوب بحيث تتعامد مع حركة الشمس، كما أنها تساعد على مرور الرياح الشمالية خلالها.

2- تظليل الشوارع، حيث يتطلب بعض المحددات العمرانية الآتية:

أ- ارتفاع المباني على جانبي الشارع بنسبة (1:2) أو أكثر، وبما يوفر الظل في هذه الشوارع.

ب- الشناشيل والمشربيات والرواشين البارزة وامتداد الطابق الأول فوق الشارع زاد من مساحة الظل.

ج- تغطية الشوارع التي تحوي أسواقا بالكامل.

أما بخصوص التلوث ففي البدء تم تحديد الفعاليات داخل التكتلات العمرانية (الدخان الضار، الرائحة الكريهة، الصوت المزعج)، ونتيجة لهذا التحديد تم إبعاد تلك الفعاليات عن الوحدة السكنية، كالأفران والصناعات التي تصدر أصواتا مزعجة وجعلها على أطراف المدينة ككل[19].

وقد حثّ الإسلام على النظافة واهتم بنظافة الملكيات العامة بقدر اهتمامه بنظافة الفرد وممتلكاته الخاصة والحفاظ عليها، فقد كان يؤمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ وغير ذلك مما يضر الناس، وقد كانت تُكنس الشوارع في مدينة بغداد كل يوم وتُحمل الأتربة إلى خارج المدينة، كما كانت هناك شوارع يُمنع الدخول إليها إلا مشاة بما فيهم الولاة، وتعتبر هذه أحدث نظريات التخطيط في المدينة المعاصرة، حيث يُفرغ الجزء المركزي من استعمال السيارات لتأمين أكبر قدر من السلامة للمتسوقين، أما تأمين الخدمات العامة الضرورية في شوارع المدينة كالحمامات والمياه فقد ذُكر من أنباء مدينة بغداد أنه كان بها عشرون ألف حمام ولكل حمام خمسة نفر لتأمينه وعمل النظافة الضرورية له[20].

-الأمان

إن المدينة العربية الإسلامية ذات حدود واضحة وتنظيم هندسي خاص يحمل دلالات معينة ويُراعي الجانب الإنساني فيها، بحيث يقع المسجد في مركزها، وتؤدي الطرقات والشوارع بالضرورة إلى المركز؛ إذ يكفي الغريب أو السائح أن يسير على النحو التقليدي إلى مركز المدينة ليجد المركز والساحة، حيث يجتمع الناس، وهناك يجد ضالّته؛ فالمسجد هو الدليل الشامل والمألوف وهو مركز الثقل الذي يجمع كل أبعاد المدينة ويمثل مكان الجذب الأهم فيها، أما المنزل

فقد كان ذو مركزية واحدة واضحة ليس فيها غموض أو تعقيد؛ وهو ما خلق مدينة سهلة الفهم تتفاعل مع الإنسان وتلائمه وتيسّر له التنقل حولها[21].

تميزت المدينة العربية الإسلامية بخلط استعمالاتها بين الديني والحكومي والتجاري والفضاءات، فيسّرت الوصول إلى الوجهات المختلفة وأصبح الحصول على الاحتياجات سهلًا لا يحتاج السير لمسافات طويلة، كما ساعد في حيوية المدينة وتواجد المستخدمين في فراغاتها؛ الأمر الذي ساعد على الشعور بالأمان وكان له أثر في تقوية البعد الإنساني داخل المدينة العربية الإسلامية[22].

كما تميّزت الشوارع والممرات في المدينة العربية الإسلامية التقليدية بوجود طريق رئيسي (قصبة المدينة)، واختلاف عروض الشوارع حسب أهميتها (قصبة رئيسية، قصبة الحي، الحارة). واستمرار الشوارع والممرات كان إما باستمرار الشخصية الواحدة (الشخصية التجارية) أو بالطابع المعماري الواحد. أما الرؤية عن بعد فتتم من خلال عناصر تحدد للسائر طريقة مثل المآذن؛ ومن ثم تولد الشوارع الإحساس بالحركة وعدم الملل بسبب التغيرات المفاجئة ولما توفره من بيئة مناسبة للمشاة، تولد الإحساس بالأمان عند المرور فيها، ومن ناحية أخرى فإن استمرار المباني على جوانب الشوارع يعكس متطلب الأمن في الأحياء القديمة للمدينة وذلك بالإضافة إلى البوابات التي كانت تغلق ليلا كما كان عليه الحال في العصر العثماني[23].

-المقياس الإنساني

يتمثّل هذا المقياس في جميع مستويات الحيز المكاني للمدينة، العامة والخاصة والتفصيلية؛ فعلى المستوى العام يتحدد حجم المدينة وأبعادها بالدرجة الأولى بإمكانية حركة المشاة، أما على المستوى الخاص فإن حجم استعمالات الأرض العامة من مساحات وطرق وأزقة فضلًا عن الأبعاد العمودية للأبنية المطلة عليها، جميعها ذات مقاييس إنسانية.

إن السائر في أزقة المدينة العربية الإسلامية سيلفت انتباهه ذلك التغيير في المشاهد

المتتالية ضمن الزقاق الواحد، إذ إن المرء يتعرض في تلك الأزقة لتنويع متدرج في كل خطوة يخطوها، وقد اقترن ذلك في جمالية الوحدات السكنية بتكويناتها المعمارية من خلال المشربيات والرواشين والشناشيل والبروزات والأقواس ومواد البناء المحلية (الطابوق والآجر)، وطرز بنائها وزخرفتها ونقوشها، فضلًا عن ارتفاعات وأحجام المباني التي اعتمدت على المقياس الإنساني وعكست المتطلبات المادية والمعنوية للإنسان[24].

- الهوية

اكتسبت المدينة العربية الإسلامية شخصيتها وهويتها الخاصة بها من الرؤية العامة التي استندت إليها فنونها العمرانية، فهي تمتلك شخصيةً معمارية وعمرانية وجمالية وهوية ذاتية خاصة بها، ومستقلة عن غيرها من الطرز المعمارية والعمرانية والجمالية للمدن القديمة التي عرفتها حضارات ما قبل الإسلام، مثل اليونانية، والرومانية، والهلينية، والفارسية[25].

وقد حافظت المدن العربية الإسلامية على هويتها على مر العصور حتى عصرنا الحالي؛ فما زال هناك حفظ للهوية وشعور بالاستمرارية، على الرغم من تغير عناصرها المادية، فمحتوى التقاليد الاجتماعية والثقافية والدينية هو ما يشكل الهوية للمدينة العربية الإسلامية[26].

- العضوية والبساطة

تميز مخطط المدينة العربية الإسلامية بالبساطة والنسيج العضوي الكلاسيكي والبعد عن الأشكال الهندسية الجامدة المتناظرة، فهي تشبه بشكل كبير التدرج المتسلسل لأغصان الشجر التي تنمو وتتفرع من الجذع الضخم إلى الأغصان الرقيقة والهشة التي تحمل نهايتها الأوراق. وتعادل البيوت العائلية في مخطط المدينة[27]، وقد تشكل هذا النسيج من خلال المفهوم السائد عند المسلمين عن الفراغ بأنه مستمر متكامل ويمثل معبرًا إلى الآخرة[28].

كما تتجلى المدينة العربية الإسلامية في مظهرها العام، وتلاحم مفرداتها وتكامل مكوناتها في كيانها العضوي الموحد، فالوحدات السكنية في معظمها متشابهة حجمًا، متناسقة كتلة

وتصميمًا، بحيث تبدو في مجملها متسلسلة ومتجانسة ضمن إطارها الكلي، يتوسطها مركز المدينة بجامعه وميدانه وأسواقه وفعالياته العامة الأخرى؛ مستجيبة بذلك لظروف المناخ سواء كان ذلك في التصميم أم في اختيار مواد البناء أم على صعيد التفاصيل أو المفردات.

وما تلاصق الأبنية والدور وضيق الطرقات وتعرجها وتدرج الفضاءات والساحات إلا شاهد واضح على عضوية هذا النمط العربي الإسلامي، التي تتجلى في موقع المسجد الجامع، حيث يحتل الوسط الوظيفي أكثر من الوسطى الجغرافي، فموضعه لا يخضع، في الغالب، لقواعد التخطيط الهندسي بقدر ما يستجيب لحاجة المجتمع الحضري المسلم إلى مكان يجمعه وينظم حياته، فالجامع هو المرجعية الأولى التي يتعلمون فيها أمور دينهم ودنياهم (العبادات والمعاملات) وما يرتبط بها من النشاطات، والأسواق، والمساكن، والتجهيزات الجماعية ثم أسوار المدينة وأبوابها.

هذه الاستعمالات كلها أوجدت نسيجًا عضويا يسمح بالتعايش الوظيفي، وربما توزيع واضح لهذه الاستعمالات بدون حدود فاصلة بين الوظائف الحضرية، فالأسواق متصلة بالأحياء السكنية والتجهيزات الاجتماعية (دينية، ثقافية، صحية .... إلخ) موزعة على ميادين المدينة كاملة، وهذا ما أكسبها خاصية الدمج والتناسق بين وظائفها. فالنسيج الحضري وظيفي مندمج، ومجاله متعدد الوظائف، بحيث يختلط الاجتماعي بالاقتصادي والديني بالترفيهي.

– الخصوصية

تعرف الخصوصية بأنها من خاصة الشيء، وفي اللغة تعني الانفراد أو الانحسار، وتعني - على المستوى الشخصي- ستر العورة والملبس وملكية الحريم الخاص للمسكن، وعلى المستوى العام تعني خصوصية الاتصال والتواصل واحترام خصوصية الآخرين وعدم انتهاكها بالنظر أو بالسمع[29]. وتقسم الخصوصية في المدينة العربية الإسلامية إلى ثلاثة مستويات، هي:

- الخصوصية على المستوى العام: وتكون أقل ما يمكن وتشمل الأماكن العامة والمفتوحة.

- الخصوصية على المستوى شبه العام: وتكون على مستوى المجاورة السكنية، ومستوى

الاتصال يكون عن طريق التحدث والنظر، ويضفي خصوصية على المنطقة.

- الخصوصية على المستوى الخاص: وهي أعلى مستويات الخصوصية المطلوبة؛ لأن استعمال المسكن يقتصر على أشخاص محددين ويمارس فيه العديد من الأنشطة[30].

وتنقسم أنواع الخصوصية في المدينة العربية الإسلامية إلى:

- الخصوصية البصرية: وتعتمد على المسافة والإضاءة وتتمثل في المدينة الإسلامية بتقليل الفتحات الخارجية والتركيز على الفتحات الداخلية باتجاه الفضاء الداخلي وباستخدام التصاميم والمعالجات المعمارية.

- الخصوصية السمعية: وتعني توفير بيئة صوتية مناسبة وتتمثل في المدينة الإسلامية بتوجيه الوحدات السكنية إلى الداخل واختيار الموقع البعيد عن مصادر الضوضاء والاستعانة بالعناصر الطبيعية.

الخاتمة والنتائج

نستنتج مما سبق أن المدينة العربية الإسلامية تزخر بمجموعة كبيرة من الأبعاد الإنسانية؛ ما جعل منها مدينة إنسانية بُنيت بالإنسان ومن أجل الإنسان، حيث وفرت للإنسان الاحتياجات المادية والمعنوية.

وبناءً على ما سبق يمكن استخلاص الأبعاد الإنسانية التي تحويها المدينة العربية الإسلامية ليتم الاستفادة منها عند معالجة المدن الحديثة القائمة، وليتم أخذها بعين الاعتبار عند تخطيط المدن الجديدة وتتمثل هذه الأبعاد في الآتي:

- **الإدارة:** وتتمثل الإدارة بإشراك المجتمع في تخطيط المدينة، والإدارة الحضرية اللامركزية للمدينة، وإشراك واستشارة ذوي العلم والخبرة في اختيار موقع المدينة والعناصر المهمة في المدينة.
- **الوصولية:** وتتمثل في تصميم طرقات تتناسب مع المشاة وتسهل وصولهم إلى مقاصدهم

بيسر ودون مشقة، وذلك عن طريق عمل طرق مترابطة ومتعرجة تعطي مشهدا بصريا مثيرا يبعد الملل عن أعين المشاهدين الذين لا يشعرون بالمسافة التي يقطعونها، وأن تكون الطرق متدرجة من الطريق العام الذي يحقق تكامل أجزاء المدينة، إلى الأزقة الفرعية التي يتداخل فيها العام بالخاص.

- **الهيكل المتضامّ:** ويتمثل التضام بهيكل مدينة ذات شوارع ضيقة، وكثافات سكنية وسكانية مرتفعة، ووحدات بنائية صغيرة متقاربة.
- **التنوع:** يتمثل التنوع في المدينة العربية الإسلامية بالاستعمالات المختلطة (دينية – سكنية – إدارية – تجارية... إلخ)، ونجد التنوع ضمن الشكل العام للمدينة في الفضاءات والطرق والواجهات والكتل والتنوع في المشهد البصري في المدينة.
- **الراحة:** تعتبر من أهم مظاهر التخطيط العمراني للمدينة العربية الإسلامية، فهيكلها المتضام واستخدام الأفنية الداخلية وفر الظلال والحماية من أشعة الشمس والعوامل المناخية الأخرى، كما تم تحديد الفعاليات الضارة وعزلها ووضعها في أطراف المدينة، وقد كان هناك اهتمام بالنظافة، فقد كان يؤمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ وغير ذلك مما يضر الناس، وتم تأمين الخدمات العامة الضرورية في شوارع المدينة كالحمامات والمياه.
- **الأمان:** يتمثل الأمان في المدينة العربية الإسلامية بالحدود الواضحة والتنظيم الهندسي الخاص الذي يحمل دلالات معينة تساعد على فهم المدينة والتنقل فيها بيسر وأمان، كما تتميز المدينة بخلط استعمالاتها بين الديني والحكومي والتجاري، وكان للفضاءات دوراً بارزاً في حيوية المدينة وتواجد المستخدمين في فراغاتها؛ الأمر الذي ساعد في الشعور بالأمان، ومما زاد الشعور بالأمان استمرار المباني على جوانب الشوارع بالإضافة إلى البوابات التي كانت تغلق ليلا.
- **المقياس الإنساني:** يتمثّل هذا المقياس في جميع مستويات الحيز المكاني للمدينة، العامة

والخاصة والتفصيلية، فعلى المستوى العام يتحدد حجم المدينة وأبعادها بالدرجة الأولى بإمكانية حركة المشاة، أما على المستوى الخاص فإن حجم استعمالات الأرض العامة من مساحات وطرق وأزقة فضلًا عن الأبعاد العمودية للأبنية المطلة عليها، جميعها ذات مقاييس إنسانية.

- **الهوية:** تمتلك المدينة الإسلامية شخصيةً معمارية وعمرانية وجمالية وهوية ذاتية خاصة بها، ومستقلة عن غيرها من الطرز المعمارية والعمرانية والجمالية للمدن القديمة التي عرفتها حضارات ما قبل الإسلام.
- **العضوية والبساطة:** تميز مخطط المدينة العربية الإسلامية بالبساطة والنسيج العضوي الكلاسيكي والبعد عن الأشكال الهندسية الجامدة المتناظرة؛ الأمر الذي أدى إلى تلاحم مفرداتها وتكامل مكوناتها في كيانها العضوي الموحد.
- **الخصوصية:** تتمثل الخصوصية البصرية بتقليل الفتحات الخارجية والتركيز على الفتحات الداخلية باتجاه الفضاء الداخلي وباستخدام التصاميم والمعالجات المعمارية، أما الخصوصية السمعية فكانت بتوجه الوحدات السكنية إلى الداخل واختيار الموقع البعيد عن مصادر الضوضاء، والاستعانة بالعناصر الطبيعية.

الهوامش والإحالات:

(1) خليفة مصطفى غرايبة، منهجية الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة العربية الاسلامية، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، العدد1، الأردن، 2015م: 1.

(2) محمد عبد الستار عثمان. المدينة الإسلامية، سلسلة كتب ثقافية شهرية، العدد 128، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1988م: 22.

(3) مصطفى الفرا. شيماء الهسي، تخطيط المدن بين المضمون الإسلامي والمضمون الحديث، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الطبيعية والهندسية، العدد 21، الجامعة الإسلامية، غزه، 2013م: 2.

(4) صالح بن علي الهذلول، المدينة العربية الإسلامية، أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية، جامعة الملك سعود، الرياض، 2010م: 133.

(5) محمد علي محمد الكحلوت، قراءة تقييمية للمدينة الإسلامية وأسس تخطيطها، المؤتمر الهندسي الدولي الثاني للبناء والتنمية، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، 2013م: 9.

(6) عبد السلام أحمد سليمان، المدينة الإسلامية بين الحقيقة والتشويه، المجلة الدولية في العمارة والهندسة والتكنولوجيا، العدد 1، العراق، 2018م: 4.

(7) كامل كاظم بشير الكناني، تخطيط المدينة العربية الإسلامية - الخصوصية والحداثة. مجلة المخطط والتنمية، العدد 15، جامعة بغداد، 2006م: 10.

(8) محمد عبدالله إسماعيل عيد، المعايير التخطيطية للمدينة بين الأصالة والمعاصرة. رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2015م: 56.

(9) خالد محمد مصطفى عزب. تخطيط وعمارة المدن الإسلامية. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الدوحة، قطر، د.ط، 1997م: 15.

(10) Al-Shouk, N. D., & Al-Khfaji, A. S. Toward Sustainable Compact City:(Study in Convert Traditional Najaf City to Sustainable Compact City). KnE.2018: 9.

(11) وجدي صدقة قطان، تأصيل قيم مفاهيم العمارة الإسلامية في المدن بالمملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير، جامعة أمّ القرى، مكة، السعودية، 2010م: 24.

(12) كامل كاظم بشير الكناني، تخطيط المدينة العربية الإسلامية: 5.

(13) صالح بن علي الهذلول، المدينة العربية الإسلامية: 65.

(14) محمد عبدالله إسماعيل، التخطيط للمدينة: 28.

(15) عبد السلام أحمد سليمان، المدينة الإسلامية بين الحقيقة والتشويه: 10.

(16) كامل كاظم بشير الكناني، تخطيط المدينة العربية الإسلامية: 6.

(17) كامل كاظم بشير الكناني، وسهام خروفة، الاعتبارات الاقتصادية في تطوير وإنشاء المدن العربية الإسلامية. مجلة المخطط والتنمية، العدد 8، جامعة بغداد، 1999م: 12-15.

(18) فهيمة مخلوفي، تحليل الأنماط السكنية في المدينة العربية الإسلامية. مركز التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا، جامعة بغداد، العراق، د.ط، د.ت، 2000م: 15-16.

(19) Al-Shouk & Al-Khfaji, op. cit: 9.

(20) كمال خلف إسماعيل، الإطار العام للتشريعات المنظمة للعمران والمدينة العربية، المؤتمر العلمي الثالث لكلية الهندسة، جامعة الأزهر، القاهرة، 1993م: 187.

(21) محمد علي الكحلوت، قراءة تقييمية: 13.

(22) Al-Shouk & Al-Khfaji, op. cit: 9.

(23) وجدي صدقة قطان، تأصيل قيم مفاهيم العمارة الإسلامية في المدن بالمملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير، جامعة أمّ القرى، مكة، السعودية، 2010م: 29.

(24) كامل كاظم بشير الكناني، تخطيط المدينة العربية الإسلامية: 6.

(25) عبد السلام أحمد سليمان، المدينة الإسلامية بين الحقيقة والتشويه:3.

(26) Hathloul, S. A. Islamic Architecture: Towards a Definition. Leonard Journal,2011. 4: 1.

(27) عبدالباقي إبراهيم، تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة. مكتبة الهندسة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 1982م: 45.

(28) محمد علي الكحلوت، قراءة تقييمية: 10.

(29) الخطيب، محمد الخطيب، اتجاهات التخطيط والتطور المستقبلي لبلدتي العيزرية وألو ديس، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2013م: 3.

(30) عبد السلام أحمد سليمان، الخصوصية في المسكن المصري المعاصر، مجلة العلوم الهندسية، جامعة أسيوط، العدد 3، 2017م: 2.